الفصل الثالث

الغرب والإسلام

إذا كان الأمر كذلك ، فما الذى يمنع الغربيين من الدخول فى الإسلام زرافات ووحداناً ؟

إن الإسلام واضح جلى ، وإن تعاليمه سهلة ميسورة ، تنسجم مع العقل والمنطق ، فما السر فى عدم أخذ الأوربيين بهذا الدين ، وعدم اعتناقهم له فى سرعة سريعة ، وفى كثرة هائلة ؟

الواقع أن العوامل التى تمنع الأوربيين من اعتناق الإسلام كثيرة قوية ، ومن المؤسف أن بعض هذه العوامل يرجع إلى المسلمين أنفسهم ، ولنتحدث أولاً عن العوامل الخارجية عن الإسلام والمسلمين .

١ – وأول هذه العوامل هى الكنيسة :

لقد أتقنت الكنيسة فن النظام ، فلا ارتجال فيها ، كل شىء فيها معد مرتب منسق ، قد بحث عن روية ، وأعد إعداداً تاماً . .

وكان مما أعدته مشروعان كبيران ، أحدهما للتبشير . والثانى لصد الهجوم عن الديانة المسيحية .

أما فيما يتعلق بالتبشير ، فإنه من الأوليات عندها ، أن يعرف المبعوث لغة المرسل إليهم ، ويدرس عاداتهم ، وتقاليدهم ، وديانتهم ، ومواطن الضعف فيهم ، والوسائل التى تجذبهم ، وأن يعلم فضلاً عن ذلك ، بعض مبادئ الطب ، ويعلم قبل ذلك وبعده كيفية الهجوم على الديانة المتوطنة . وكيفية

الدعوة لديانته . أما المشروع الآخر وهو الذى يعنينا هنا ، فهو على الخصوص يتركز فى دراسة مستمرة متجددة فى أحدث الوسائل لتشويه ديانات الآخرين فى ذلك .

وما نشر من أضاليل عن الإسلام لا يحصر ولا يعد ، إنها أضاليل تنشر متتابعة متكررة ، تتردد فى صور مختلفة ، وينتهى بها التكرار والترديد إلى إيمان من تنشر عليهم بها ، وتبلغ بهم الصفاقة إلى أن يعكسوا الحقائق عكساً تاماً ، فالدين الإسلامى مثلاً ، وهو دين التوحيد الخالص ، ودين التنزيه التام ، يشيعون عنه أنه دين عبادة الأوثان . .

ويكررون ذلك فى مختلف الأمكنة والأزمنة ، وينتهى المسيحيون بالاعتقاد بأن هذا الدين إنما هو : عبادة الأوثان .

وهكذا تسير الدعاية تضليلاً ، وتشويهاً وعكساً للحقائق . .

ومن أهم الوسائل أيضاً لتحصين المسيحية ما يسمونه نظام الحرمان من الدين المسيحى ، وهو نظام بمقتضاه يسهل على الكنيسة أن تحرم قراءة أى كتاب ترى فيه خطراً على المسيحية سواء كان هذا الكتاب هجوماً عنيفاً على المسيحية ، أو دعاية بارعة للإسلام ، أو حتى نمطاً ممتازاً من الدعاية القوية لسعة الأفق وتحرير الفكر .

وقد استعملت الكنيسة هذا الحق فى شأن كثير من الكتب الممتازة ، واستعملت هذا الحق أيضاً فى شأن كثير من الكاتبين ، وكان موقفها من كل كاتب لا يمكنها أن تستولى عليه ، بوسيلة الرغبة أو بوسيلة الرهبة ، أن تحرم قراءة

كتبه ، وأن تحرمه هو من رحمة السماء .

عند الكنيسة إذن : الرغبة والرهبة ، عندها المال ، وعندها الحرمان .

٢ – على أن الأسباب التى ترجع إلى المسلمين ، لا تقل خطراً عن الكنيسة .

إن أية دعوة مهما كانت من السمو لا يمكن أن تجتذب إليها الأنصار إلا إذا كان لها دعاية ، وقد أخذت الدعاية فى العصر الحديث مكاناً يجعلها فى الدرجة الأولى من الأهمية .

ويعرف ذلك المسلمون ، يعرفه تجارهم ورجال الأحزاب منهم ، ويعرفه كل مثقف ، ولكنهم لا يعملون به فيما يتعلق بنشر الإسلام .

أين دعاتنا فى الشرق أو فى الغرب . أين مبعوثونا . أين الدعاة منا ؟

لا شىء من ذلك مطلقاً ، ومن المعروف أن مبعوثى الحكومة ، ومبعوثى الأزهر إلى الأقطار الخارجية : إنما بعثوا لتعليم الحساب والخط والإملاء واللغة العربية فى مدارس إسلامية ابتدائية أو إعدادية أو ثانوية ، ليس لنا فى الخارج قط مبعوثون ، وإذا كان الدين الإسلامى ينتشر فإنما ينتشر بقوته الذاتية ، برغم الهجوم عليه ، وبرغم العقبات التى تعترض طريقه .

ولنقارن ذلك كله بالإرساليات التبشيرية ، ومن أمامها ومن خلفها المستشفيات ، والملاجئ ، والمدارس ، والمعاهد ، والمال يغدق ، والوظائف تهيأ ، ولنتصور كفتى ميزان إحداهما لا شىء فيها وتلك هى كفة المسلمين بالنسبة للإسلام ، والأخرى فيها كل شىء ، وتلك هى كفة المسيحيين بالنسبة للمسيحية .

وسبب ثان تحدث عنه جمال الدين الأفغاني ، وكان يرى أنه أقوى الأسباب ، ذلك هو حالة المسلمين .

وكثيراً ما قال جمال الدين : إن الغربيين يستمدون فكرتهم عن الإسلام من مجرد رؤيتهم للمسلمين ، فإنهم يرون المسلمين متخاذلين ضعفاء أذلاء مستكينين ، فرقت بينهم الأهواء والشهوات ، وقعدت بهم الصغائر . وانصرفوا عن عظائم الأمور ، وأصبحوا مستعبدين مستذلين ، ولو كان الإسلام ديناً قوياً لما كان المسلمون هكذا . .

ينظر الغربيون إلى المسلمين في العصر الحاضر ، وينسون شيئين :

ينسون أن المسلمين في العصر الحاضر غير مستمسكين بالإسلام . وتكاد الصلة التي بينهم وبينه تكون مجرد صلة اسمية ، وينسون عظمة المسلمين وقوتهم أيام كانوا مستمسكين بالإسلام ، وأيام أن كانت الدنيا لهم .

ولعل المسلمين يعودون إلى دينهم صافياً نقياً ، ويستمسكون به فيكونون مرآة حقيقية يتمثل فيها الإسلام قوياً سامياً .

وآداب الإسلام حقيقة كفيلة بأن تجعل من المسلم رجلاً قوياً مهذباً كريم النفس ، ولكن المسلمين ابتعدوا كل البعد عن الإسلام .

ولنتخذ مثلاً بسيطاً ، مسألة النظافة . . لقد دعا الإسلام إلى النظافة دعوة لم يدعها دين من الأديان ، ولم يدعها مذهب من المذاهب قديماً أو حديثاً ، ولكن إذا نظرنا إلى الأقاليم الإسلامية أو إلى الأحياء الإسلامية ، وقارناها بالأقاليم ، أو الأحياء الأخرى ، نجد الفرق واضحاً ، سواء كنا في مصر ، أو في تونس . أو في مراكش أو في غير ذلك من البلدان .

ونأخذ مسألة أهم من ذلك ، مسألة اتحاد الأمم الإسلامية .

فقد دعا إليها الإسلام فى صور لا حصر لها ، وبأساليب لا حد لتنوعها ، مهدداً متوعداً تارة ، مرغباً محبباً تارة أخرى ، متحدثاً عن الثمرات المادية والدنيوية للاتحاد ، ومع ذلك فقد كان كل ذلك صرخة فى واد ، وكأن المسلمين عن الاتحاد صم بكم عمى فهم لا يعقلون .

وخذ آداب الإسلام واحداً فواحداً ، وانظر إلى حال المسلمين .

هل تجد توافقاً ، وانسجاماً بين المسلمين والإسلام ؟

يقول جمال الدين :

« إذا أردنا أن ندعو للإسلام ، فليكن أول ما نبدأ به أن نبرهن للغربيين أننا لسنا مسلمين » .

وسبب ثالث لعدم انتشار الإسلام آت من المسلمين أنفسهم . . أيضاً ، وذلك هو . . عرض الإسلام وكتب المسلمين أنفسهم . .

منذ سنوات جاء أحد الأمريكان ليمكث فى مصر فترة من الزمن يتعلم فيها الإسلام . واتصل بالهيئات التى تمثل الإسلام ، فبلغت الحيرة منتهاها حينما أرادت هذه الهيئات اختيار كتاب يتعلم من خلاله الإسلام .

ومن الطبيعى أن يتجه الذهن إلى كتب علم الكلام ، فهى كتب الدفاع عن العقيدة . . ولكن إذا نظرنا فى كتب علم الكلام نجد أنها جدال لا ينتهى بين الذين يبحثون فيه ، بالزيغ وابتغاء الفتنة ، والجدال فيها يبدأ ويعاد ولا ينتهى .

ثم هى تصور — على الخصوص — المستوى الثقافى للعصور الوسطى ، ولا تمت بصلة إلى الأبحاث الحديثة . ومن الطبيعى أن تكون كذلك لأنها ألفت

فى العصور الماضية ، وما ألف منها حديثاً ، ألف على نمطها اتباعاً للآباء والأجداد ، وبغضاً للخروج عن المألوف .

وإذا لم نأخذ الدين من كتب علم الكلام فهل نأخذه من كتب التفسير؟ !

لقد انتهى تفسير القرآن إلى أن أصبح مسرحاً يتبارى فيه النحويون واللغويون وبلاغيو العصور المتأخرة ، وغشت هذه النواحى على الهداية لما أنزل الكتاب من أجله أى الهداية للأقوم .

وإذا كانت كتب الكلام قد استفاضت فى الحديث عن القدر ، مع نهى رسول الله ﷺ نهياً صريحاً عن الحديث فيه ، وإذا كانت قد استفاضت فى الحديث عن صلة الذات الإلهية بالصفات إذ أنه محاولة لاكتناه الذات الإلهية التى نهينا عن التفكير فيها ، وأمرنا بالتفكير فى آثارها ، وإذا كانت كتب الكلام قد تعرضت لذلك دون جدوى ولا ثمرة ، فإن كتب التفسير أيضاً قد تعرضت لهذه المشاكل نفسها دون جدوى ولا ثمرة . .

ومما لا شك فيه أن اكتناه سر الألوهية من حيث الذات ، أو من حيث القدر ، من المتشابه الذى نهينا عن الخوض فيه . .

ولكن اكتناه سر الألوهية من الأمور التى تتطلع إليها نفوس طائفة من الناس أرادوا بعقلهم المحدد ، تعيين ما لا يحد ، وطمعوا فى أن يحدوا بعلمهم الجزئى ما لا يحيطون به علماً .

ونشاهد الاتجاه فى عهد الرسول نفسه ، وكان موقف الرسول منه حاسماً ، والأحاديث كثيرة مستفيضة فى النهى عن الخوض فى الذات أو فى القدر ، ومما يروى فى ذلك الأمر المتكرر المتنوع بالتفكير فى الخلق دون ذات الخالق ،

حتى لا تهلك .

عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال :

«خرج رسول الله ﷺ . ونحن نتنازع فى القدر فغضب ، حتى احمر وجهه ، ثم قال : أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم ! إنما هلك من كان من قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا . . » .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده قال :

«خرج رسول الله ﷺ ، ذات يوم وهم يتراجعون فى القدر ، فخرج مغضباً ، حتى وقف عليهم فقال : يا قوم ، بهذا ضلت الأمم قبلكم : باختلافهم عن أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضاً ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به . .

وبعض الأحاديث تذكر : «فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله ، ثم انتهرنا . . أو فغضب حتى لكأنما فقئ فى وجهه حب الرمان» .

وكان من الممكن لو استقامت عقول الناس ، ونزعت من قلوبهم الأهواء والشهوات أن يكتفى بنهى القرآن ، ونهى الرسول ﷺ . ولكن الذين فى قلوبهم زيغ موجودون فى العالم فى كل آونة وحين ، وفى كل بيئة ومكان .

فقد أطلت الفتنة فى عهد عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، ممثلة فى صبيغ الذى كان يتكلم فى القدر ، فأخذ عمر يضربه بعراجين النخل على رأسه حتى تاب ، فتركه بعد أن أدمى رأسه وقال ، حسبك يا أمير المؤمنين ، قد ذهب الذى كنت أجده فى رأسى ، يريد بذلك أنه قد تاب ، وأن نزغاته قد بددتها عراجين النخل ، وذهبت مع الدم الذى سال من رأسه . .

وسأله سائل عن آيتين متشابهتين ، فعلاه بالدرة . .

يقول الإمام ابن قتيبة فى شرح مختلف الحديث :

« . . وقد تدبرت مقالة أهل الكلام ، فوجدتهم يقولون على الله ما لا يعلمون ، ويفتنون الناس بما يأتون ، ويبصرون الناس بالقذى فى عيون الناس وعيونهم تطرف على الأجذاع ، ويتهمون غيرهم فى النقل ولا يتهمون آراءهم بالتأويل ، ومعانى الكتاب والحديث ، وما أودعاه من لطائف الحكمة ، وغرائب اللغة لا يدرك بالطفرة والتولد ، والعرض ، والجوهر ، والكيفية ، والأينية . . ولو ردوا المشكل منها إلى أهل العلم لوضح لهم المنهج ، واتسع لهم المخرج ، ولكن يمنع من ذلك طلب الرئاسة . .

إن عرضنا الدين الإسلامى على هذا النمط من العرض ، جعل كتبنا لا يتيسر فهمها للأجانب عنا ، ولو لم يكن فى الإسلام تلك القوة الذاتية التى تستولى على القلوب وتغمر الأفئدة لضاق بهذه الكتب المسلمون أنفسهم . . الإسلام إذن بحاجة إلى عرضه عرضاً سهلاً ميسراً قوياً ، وبأساليب متنوعة وصور مختلفة حتى نتلافى هذا التقصير .

ومع كل هذا . . هل منعت هذه العوامل من انتشار الإسلام وذيوعه ؟